وباب آخر
[فى الخلافة]

وهو أن أفعال رسول الله ﷺ وأقواله ووصاياه وعهوده، تشهد بأنه ما عهد فى رجل بعينه، وأن الأمر فى الخلافة بعده إلى خواصه وأصحابه ليختاروا من يرون، وأن الخلفاء بعده يجوز عليهم الخطأ والزلل؛ ألا تسمع قوله ﷺ: «أنفذوا جيش أسامة» وقوله: «لا تتركوا بعدى فى جزيرة العرب دينين، ولا تجمعوا فيها دينين»، وقوله: «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإن لم يستقيموا لكم فخذوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم، وإلا فكونوا أشقياء حرّاثين تمشون خلف أذناب البقر، وتأكلون كدّ أيديكم. أطيعوهم ما أطاعوا الله ورسوله، فإذا عصوا الله ورسوله فلا طاعة لهم عليكم؛ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق[1]».

وقوله: «هذا الأمر فى قريش ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا أقسطوا، وإذا عاهدوا وفوا، فإن لم يفعلوا ذلك، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منهم صرف ولا عدل».

ومثل هذا من أقواله كثير، ويعلم هذا من دينه، كما يعلم من دينه أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وأن اليمين على المنكر والبينة على المدعى، والنفقة على الزوج دون المرأة، وما أشبه ذلك من شريعته.

وهذه الوصايا منه إنما هى لأصحابه وخاصته، فمن أشكل عليه بعد هذا إنه ما نص على رجل بعينه، وأن الخلفاء بعده يجوز أن يقع منهم الخطأ والزلل، وأنه ليس فيهم من يُؤمن منه ذلك، فقد أشكل عليه الواضح من شريعة رسول الله ﷺ وجلّى سيرته، والمكشوف عن شريعته ووصاياه.

فإن قيل: كيف أشكل هذا على هؤلاء القوم؟ قيل له: ليس يعرف هذا

---

(١) انظر شرح الجامع الصغير للمناوي ١:١٤٩ .

بكمال العقل وأن كان واضحاً، وإنما يعرف بكثرة السماع وحسن الإصغاء والتأمل، وجودة التحصيل وصحة النقل.

ألا ترى أن فى هؤلاء من يقول: إن فى القرآن زيادة، وفيهم من يقول: فيه نقصان، وفيهم من يقول للطهارة والصلاة والصيام وسائر الشريعة باطن يخالف ما عليه الفقهاء والعامة، وإلى ما يذهب أهل التناسخ وقوم من الصوفية. وكل من جالس العلماء وكثر سماعه وجاد تحصيله، يعلم علماً يقيناً أن هذا خلاف دين النبى ﷺ؛

وقد عرف أصحابه من سيرته جواز الاختيار فى الأئمة والأمراء، وعملوا بذلك فى حياته ﷺ. ألا ترى أنه لما أنفذ عسكراً لغزو الروم قال لهم: أميركم زيد بن حارثة، فإن هلك فجعفر بن أبى طالب، فإن هلك فعبد الله بن رواحة؛ فهلك هؤلاء الأمراء الثلاثة فاستعمل الجيش بعدهم خالد بن الوليد المخزومى أميراً عليهم، فدبرهم وساسهم ولقى العدو بهم، فما أنكر النبى ﷺ ذلك بل صوبهم، وسمى خالد بن الوليد سيف الله، وقد كان النبى ﷺ أنفذ عماً لأبى موسى الأشعرى أميراً على جماعة فهلك، فاستعملوا بعده أبا موسى، فما أنكر رسول الله ﷺ ذلك بل صوبهم؛ بل إنهم إنما فعلوا هذا لأنهم قد عرفوه من سيرته.

وقد ولى رسول الله ﷺ أبو العلاء بن الحضرمى البحرين، وأنفذه فى جماعة، وعهد إليه عهداً معروفاً، وقال ﷺ فى هذا العهد: وأنا أشهد الله على رجل وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيه قليلاً كان أم كثيراً فإنه لا طاعة له، وهو خليع محاولتيه، وأنى قد برأت المسلمين الذين معه من عهدهم وإيمانهم منه ومن ولايته، فيستخبروا عند ذلك الله ثم ليستعملوا عليهم أفضلهم فى أنفسهم، وأشباه هذا فى وصاياه وعهوده وسيره كثيرة، وأنت تجده متى طلبته، وفما معك أتم كفاية.

باب آخر

وهو أن الصحابة قد خاضوا فى باب الإمارة فى مرض رسول الله ﷺ وقبل ذلك فى أزمان مختلفة، وجرى لهم من الخوض فى ذلك أكثر مما جرى لهم من كل شئ فى كبار الأمور وصغارها، فأقوالهم وأفعالهم وأفعال من لا عهد عنده فى رجل بعينه، وأن الأئمة بعد رسول الله ﷺ يجوز أن تقع منهم المعاصى والخطايا.

فمن ذلك، أن الصحابة سألوا علياً فى مرض رسول الله ﷺ فقالوا: كيف أصبح رسول الله يا أبا الحسن؟ فقال: أصبح رسول الله بحمد الله بارئاً، فقال له العباس: أحلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله ﷺ كما أعرفه فى وجوه بنى مناف، وإنى لأرى رسول الله ﷺ سيتوفى فى وجعه هذا، فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ نسائله فإن كان هذا الأمر فينا علمنا، وإن كان فى غيرنا أمرناه فوصى الناس بنا. فقال له على: ما كنت لأسألها رسول الله ﷺ، فإنا إن سألناه فقال ليست فيكم منعناها الناس وقالوا: رسول الله ﷺ قال ليست فيكم، والله لا سألتها أبداً.

فانظر كم فى هذا من بيان على صحة ما قلنا؛ فهذا العباس، وهذا على، وهؤلاء الصحابة، فلو كان النبى ﷺ قد نص لما جاز أن يذهب علمه عنهم، أو لو قال قولاً يحتمل تأويله هذا المعنى لما ذهب عنهم، فإن البحث والنظر والخوض يخرج خفيات الأمور ويذكر بغوامضها وبما قد تقدم عهده وزمانه.

فكيف بالشئ الواضح القريب العهد، ورسول الله ﷺ حى بينهم، فكيف لم يقل علىّ للعباس: يا عم، أما تعلم أن رسول الله ﷺ قد نص على وجعلنى حجة على العالم واستخلفنى وولدى على أمته إلى يوم القيامة، وكيف تسيت مع قرب العهد، أو ليس قد قال: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه»، و«أنت منى بمنزلة هرون من موسى»، وهذا نص واستخلاف.

فإن كان أمير المؤمنين على رضي الله عنه نسى أن النبى ﷺ استخلفه كما نسى العباس فكيف لم يذكرها الصحابة وهم يسمعون ما يجرى، وهذا لا يخفى على متأمل، فقد وجدت رحمك الله علياً والعباس والصحابة قد أبقوا على أن رسول الله ﷺ ما نص ولا استخلف رجلاً بعينه، ولا قال قولاً قصد به هذا المعنى، فإن قيل: ومن سلم لكم أن هذا قد جرى بين على والعباس رضى الله عنهما؟

قيل له: إن هذا كالذى جرى فى السقيفة وفى الشورى، لا يرتاب بذلك أهل العلم، والعجب أنكم تقولون أن النبى ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه» وتنكرون مثل هذا وهوأصح، والعلم به أقوى، ومازال ولد العباس وولد على من قديم الدهر يتذاكرون هذا الذى جرى عن آبائهما فى أنهما أصوب رأياً، ويخوض أهل العلم فى ذلك، كالشعبى وعبد الرزاق، وإنما يذهب مثل هذا على معاند أو من لا نصيب له فى العلم.

وفى هذا الباب، أن النبى ﷺ لما مرض جزع ٭صحابه لمرضه، فكانوا معه وحوله ومسجده بهم مثل الرمانة، وعنده فى بيته أزواجه وعماته وبناته، فكان إذا وجد خفّاً خرج فصلى بهم، فاشتد به يوماً مرضه فقالوا: الصلاة يا رسول الله، فقال: ما أستطيع الخروج، صلوا، قالوا: يا رسول الله من يصلى قال: يؤذن بلال ويصلى أبو بكر.

ففى قولهم من يصلى، دليل على أنه ما استخلف رجلاً بعينه، لأنه لو كان فعل ذلك لما قالوا من يصلى ولا خفى عليهم مكانه، كما لا تخفى عليهم القبلة وقد فرغ لهم منها، فلا يقولون إلى أين نصلى، وأكد ذلك أيضاً بقوله: يصلى بكم أبو بكر، ولو كان قد استخلف رجلاً بعينه لقال: أو ليس قد استخلفت عليكم علياً، فكيف نسيتم مع قرب العهد، ولأمر علياً بالصلاة.

فإن قيل: ومن سلم لكم هذا وإنما عائشة قالت له لا رسول الله، وأن رسول الله ﷺ لما أحس به خرج وصرفه.

قيل له: إنه ليس لرسول الله عهد أوثق ولا عهد أوضح من عهده إلى أبى بكر فى الصلاة بالناس فى مرضه، فإنه عقد كان منه فى بيته وبحضرة أصحابه، الذين صفتهم على المحافظة على دينه الصفة التى قدمنا، والعلم بذلك يجرى مجرى مرضه فى بيت عائشة ودفنه فيه، ومجرى العلم بأن أبا بكر وعمر دفنا عنده.

والعجيب ممن يقول: قد علمنا أن رسول الله ﷺ قال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه وعلىّ منى بمنزلة هرون من موسى، وقال: انفذوا جيش أسامة، وينكر أمر أبى بكر فى الصلاة بالناس، وهذا من العناد الشديد والجهل الفائض، وهو كمن قال: إن رسول الله ﷺ ما اختار أبا بكر للهجرة معه ولا كان معه فى الغار، ولا اختصة بأن يكون معه فى العريش يوم بدر دون الناس كلهم، ولا كان معه فى بيعة الرضوان، ولا أقامه مقام نفسه فى الحج بالناس فى سنة تسع ولم يقدم غيره فى ذلك، وهو أول أمير حج بعده ﷺ فى حياته من المدينة.

ولقد أمر أبو بكر بالصلاة، فصلى بجميع أصحابه وأهل بيته كالعباس وعلىّ وجميع بنى هاشم ومواليه، وهو ينظر إليهم من بيته وفى مسجده وهم يصلون خلف أبى بكر، فصلى بهم أبو بكر عدة أيام. ففى بعض تلك الأيام يخرج رسول الله ﷺ ويصلى معهم، وفى بعضها يخرج وقد فرغ أبو بكر فيجلس معهم، وفى بعضها يحس به أبو بكر فيتنحى ويقدمه ويصلى بهم. لا يتدافع أهل العلم من الصحابة والتابعين والذين يلونهم والذين يلونهم فى ذلك. ولقد صلى بهم أبو بكر الظهر فى اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ قبل دفنه وقبل البيعة له بذلك العهد الذى كان من رسول الله ﷺ لا ينازعه فى ذلك أحد.

وقد روى هذا الحديث وأمر رسول الله ﷺ لأبى بكر بالصلاة على بن أبى طالب، ذكر ذلك فى خلافته وعلى منبره مرات كثيرة، ورواه العباس وابنه عبد الله، وذكره عمر على منبره فى خلافته، ورواه أبو عبيده، وعبد الله بن

مسعود، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن زمعة، ومن لا يحصى كثرة من المهاجرين والأنصار. وإنما كان سبب ذكرهم له، لأنهم كانوا يذكرون مرض رسول الله وكيف صنع، وإنما يظن أن أبا بكر تقدم فصلى بالمهاجرين والأنصار بغير عهد من رسول الله ﷺ، من لا يعرف المهاجرين والأنصار، وشدة بصائرهم، وإعظامهم لمقام رسول الله ﷺ أن يقوم فيه أحد مقامه سيما فى خاصته بغير أمره.

وبعد فإن مسجده فى بيته ونصب عينيه، يسمع وهو فى بيته صوت من فى مسجده ويراه، وأمره لأبى بكر بالصلاة بحضرة أصحابه، ويسمع ذلك جميع أزواجه وبناته وعماته، فقد كنّ فى مرضه هذا اجتمعن كلهنّ عنده فى بيت عائشة. وكان أمره له بذلك مرة بعد مره، فإن الصحابة كانوا يدخلون فى أوقات الصلاة فإن وجد خفّا خرج معهم، وإلا قال لهم: يصلى بكم أبو بكر. وكان فى أول أمره أمر بذلك، قالت عائشة: يا رسول الله، إن أبى رجل أ سيف لا يستطيع أن يسمع الناس، فلو أمرت غيره، فأبى رسول الله ﷺ ذلك ولم يجبها إليه، فاستعانت ببعض أزواجه عليه ليشفعها ويأمر غير أبى بكر بالصلاة، فردّهن رسول الله وغضب وقال: يأبى الله والمؤمنون غير أبى بكر، إليكن عنى صويحبات يوسف. فهذا الذى كان من عائشة فادعوا عليها ما لم يكن، وهذا شأنهم، وقد قيل لعائشة لم كرهت أن يصلى أبوك بالناس فى مرض رسول الله ﷺ وراجعت رسول الله ﷺ فى ذلك حتى غضب؟ قالت: ظننت بحداثة سنى أنه لا يطيق ذلك، وأن المسلمين يتشاءمون به.

وقد قال بعض العلماء فى قول رسول الله ﷺ: إليكن عنى صويحبات يوسف، إن أولئك النساء ظنن أن يوسف عليه السلام إذا دفع إلى شدة يضعف ويجيب إلى المعصية فلم يكن كما ظنن، فأراد رسول الله أن أبا بكر سيدفع إلى شدائد فيصبر ويحتمل.

ثم يقال لهم: وكيف طمع أبو بكر أن يتقدم بأصحاب رسول الله ﷺ وقد

علم أن رسول الله ﷺ قد استخلف علياً وعرفهم أنه حجة الله عليهم وعلى رسول الله وجميع الصحابة حضور شهود، كيف يتوهم عاقل هذا؟

وبعد فكيف أقر رسول الله ﷺ عائشة في أزواجه وأقام عليها وقد ارتدت بهذا الصنيع، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[1]؟

فادعيتم أن أبا بكر اغتصب هذا المقام، وأن ذلك بلغ رسول الله ﷺ وأنه غضب من ذلك وأنكره، وخرج وعزل أبا بكر، وأنكر على الصحابة طاعتهم لأبي بكر في الصلاة خلفه؛ هذا أمر عظيم ومراجعات كثيرة، إذ لو كانت لكان العلم بها أقرب من العلم بما كان من المراجعة لرسول الله ﷺ من المراجعة والمناقلة يوم الحديبية مع سهيل بن عمرو وما أشبه ذلك، ولكن مذاهبكم مقصورة على دعاويكم.

ومن العجب كونكم ما ادعيتم أن رسول الله ﷺ لما غضب وخرج وعزل أبا بكر أن يكون قد قدم علياً فصلى بالناس ليتم بهتكم، بل لو كنتم صادقين في دعوى النص عليه لكان هذا وقت تقديمه والغضب لأجله لو ادعيتم أن رسول الله ﷺ لم يختر بيت عائشة لمرضه ودفنه والموت فيه وإنما اختار بيت ابنته فاطمة ولكن أبا بكر مضى واغتصبه وحمه وجاء به إلى بيت عائشة، فهذا رحمك الله من الأدلة التي تشهد أن رسول الله ﷺ ما استخلف علياً ولا نص عليه كما يدعي هؤلاء وإنما ينكرون الأخبار.

فإن قالوا: لو كان رسول الله ﷺ ما استخلفه لعلمنا باضطرار أنه لم يستخلفه.

قيل لهم: ما لم يفعله رسول الله ﷺ لا يعلم بالاضطرار، إنما يعلم بالاستدلال، فمن استدل علم ومن لم يستدل جاز أن يظن أنه قد فعل.

ولو كان فعل شيئاً أو فرض شيئاً على الأمة من سائر أحكام الشريعة لجاء مجيء العلم كما جاء غيره، وهذا هو الأصل كما شرحنا وقدمنا.

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٠ .

باب آخر

من هذا، أن الأنصار لما قبض رسول الله ﷺ حزنوا لفراقه، فاشتد حزنهم وعظمت مصيبتهم، فقالوا هدانا الله به، وجمع إلفتنا بدعوته، وعظمت علينا بركاته، فرجع بعضهم على بعض فقالوا: احمدوا الله فقد قبض وهو عنكم راض، فقالوا: الحمد لله، ولكن قد وترنا الأمم، وقد قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف، ولابد لنا من أمير نقيمه فنغزوا معه ونجاهد، فقال قائل منهم: لا بد لكم من هذا، فأقيموا رجلاً منكم.

فانظر كيف أفصحوا بأنه لم يستخلف، ولو كان كما يدّعون هؤلاء لقيل لهم ذلك ورد عليهم هذا القول والنبى ﷺ لم يدفن بعد، وكيف لم يُستدل عليهم بالآيات والأحاديث التى تروونها وتستدلون أنتم بها فلو لم يكن إلا هذا لكفى فى الدلالة على بطلان ما يدعونه هؤلاء، وما يدعيه العباسية والبكرية.

فإن قيل: فالنبى ﷺ قد قال: «الأئمة من قريش» فى الجماعات الكثيرة وقد ذهب هذا على الأنصار، فما تنكرون أن يكون قد نص على علىّ والعباس وأبى بكر وذهب عنهم؟

قلنا: لا ندعى أن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش» فى الجماعات الكثيرة، ولا قام فيهم خطيباً كما تقولون فى دعواكم لعلى، ولا أخذه على الناس، ولا هو أيضاً من فرض الكافة، وإنما هو من فرض الفقهاء والخاصة، فيعقده أربعة نفر أو خمسة لواحد، وهو يجرى مجرى قوله عليه السلام: «لا وصية لوارث»(١)، و «أهل ملتين لا يتوارثون»(٢)، و«الخراج بالضمان»(٣)، ولى كذلك ما يدّعونه من أنه نص على رجل بعينه وفرض طاعته على جميع أمته وجعله الحجة عليهم بعده.

---

(١) رواه الدارقطني عن جابر، وحسنه السيوطى فى الصغير جـ٢ ص ٢٠٤.
(٢) ورد معني هذا الحديث فى البخاري ومسلم ومسند أحمد عن أسامة.
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه.

فأوجب على الرجال والنساء والأحرار والعبيد والمقيمين والمسافرين طاعته، وأعلمهم هذا الفرض وأداه إليهم بحسب وجوبه وشمول عمومه، فجرى فى الفرض مجرى قوله: «أنا رسول الله إليكم وحجة الله عليكم».

فهذا لا يذهب على النفر اليسير ممن هو دون الأنصار فى الرتبة والاختصاص برسول الله ﷺ، وهو يقول: « الأنصار كرشى وعيبتى»[1]، يريد بذلك أنهم موضع سرّى وخاصتى، فأين فرض هذا من قوله: «الأئمة من قريش»[2]، ومع كون هذا من فرض الخاصة، فعند الحاجة ذكر وقبله ا لأنصار كلهم وعملوا به، فلو كان دعواكم أنتم أيضاً كذلك لكان قيل وعمل به مثل هذا.

وباب آخر

[الإمامة بالاختيار]

من هذا أن العباس وبنى هاشم بلغهم قول الأنصار وما عزموا عليه، فما أنكروا قولهم أن رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف، وأن الإمامة تجب بالاختيار، بل مدحهم العباس وأثنى عليهم وزيل على علىّ وقال له: قد كنت قلت لك ورسول الله ﷺ حىّ عليل انطلق بنا إليه نسأله فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا لم تُنازع فلم تفعل، والآن فامدد يدك أبايعك فيقال: هذا عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان.

فتأمل رحمك الله هذا البيان وهذا الإفصاح من الجميع، أن رسول الله ﷺ ما نص ولا استخلف، فكيف لم يقل على لعمه: كيف تقول إنك لو بايعتنى ما اختلف على اثنان ورسول الله قد عقد لى وجعلنى الحجة وقد خالفونى.

وإنما كان قوله ﷺ للعباس لما قال له أمدد يدك: هذا أمر المسلمين، وما كنت لأفتات عليهم بأمر، فإن أرادونى فقد عرفوا مكانى.

فقيل له: أقبل فإنهم لا يخالفونك ولا يكرهونك، وقال له أبو سفيان:

---

(١) رواه مسلم.

(٥) رواه الحاكم.

اقبل يا أبا الحسن ما يقول أبو الفضل وأنا أبايعك، فقال له العباس: اقبل فهذا شيخ بنى عبد مناف يبايعك أيضاً، فقال أبو سفيان علىّ بنو عبد مناف كلها، بل قريش أن تبايع ولا تخالف، فقال له العباس: افعل، فقال: لا يا عم إلا عن ملأ من المسلمين.

فانظر كيف بين رضى الله عنه أمر الإمامة للمسلمين وباختيارهم، وأنه لا يبادر إلى القبول لئلا يظن به الحرص على الإمارة، فقال له قائل من بنى هاشم: فأخبر الناس أن رسول الله ﷺ جعلها فى بنى هاشم، فقال رضى الله عنه: والله لئن كنت أول من آمن به فلا أكون أول من كذب عليه.

ومقام آخر، وهو أن العباس خرج إلى أبى بكر وهو فى المسجد فأخبره بما بلغه عن الأنصار، وسأله أن يمضى إليهم ويبين لهم، لعلم العباس بعظم قدر أبى بكر فى المهاجرين والأنصار. فنهض أبو بكر وتبعه عمرو وأبو عبيدة، وصاروا إلى الأنصار، فأنكر عليهم أبو بكر ما عزموا عليه، فعجبوا من إنكاره وقالوا: لم تنكر أن تكون الإمارة فينا، فقد مضى رسول الله ﷺ وما استخلف، وقد قال فينا كذا، ومدحنا بكذا، فقال أبو بكر: صدقتم، وقد قال رسول الله ﷺ: ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووواديهم؛ ثم قال أبو بكر ولكن هذا الأمر ينبغى أن يكون فى الحىّ من المهاجرين من قريش، فلا تنفسوا عليهم الإمارة: أسلمنا قبلكم، وقدمنا الله فى القرآن عليكم، وما كان فى قريش نفاق.

فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: فإن ابيتم فمنا أمير، ومنكم أمير. ثم اقبل على قومه من الأنصار فقال لهم: البلاد بلادكم، والبادية باديتكم، وأنتم شعب الإسلام الذى لجأ إليه، وإنما عزّ الإسلام بأسيافكم، فإن أبى هؤلاء أن يكون منا أمير ومنهم أمير فأخرجوهم من بلادكم ثم أقبل على المهاجرين وقال: إن شئتم أعدناها جذعة، أنا عزيقها المرجّب وجذيلها المحكك.

فقال أبو عبيدة: الله الله معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير، وقال أبو بكر لسعد بن عبادة: قد علمت يا سعد أن

رسول الله ﷺ قال: «الناس تبع لقريش، فخيار الناس تبع لخيارهم، وشرارهم تبع لشرارهم»[١] قال: صدقت، فقال بشير بن سعد الأنصارى: والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد عدونا فما أردنا بذلك الارضاء والكدح لأنفسنا، وما ينبغى أن نستطيل على الناس، فالمنة لله ورسوله علينا. ورجع الأنصار عما كانوا عليه، وأقبلوا على أبى بكر وقالوا: من ترضى لنا يا أبا بكر، فقال: رضيت لكم عمر وأبا عبيدة، إن رسول الله أتاه قوم فقالوا: ابعث معنا أميناً حق أمين فبعث معهم أبا عبيدة، وقد قال فى عمر كذا وكذا، فقال عمر: أنا فلأن اضجع فأذبح فى غير مأثم أحب إلىّ أن اتقدم قوماً فيهم أبو بكر، ولكن انت يا أبا عبيدة إن شئت بايعتك، فقال أبو عبيدة لعمر: ما سمعت منك فهة فى الإسلام قبلها، أتقول هذا لى وفيكم الصديق وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله، وقد أمّنا حياة رسول الله ﷺ. فقال عمر: معشر الأنصار، قد علمتم أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر وأقامه مقامه فى الصلاة بالناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم على من قدمه رسول الله ﷺ، فقالوا: معاذ الله أن نتقدم أبا بكر، فقال بشير بن سعد الأنصارى ثم الخزرجى: قوموا إلى خليفة رسول الله ﷺ فبايعوه، فانثالوا على أبى بكر ومدّوا يده فقبضها وقال: بايعوا عمر أو أبا عبيدة، ودفعهم عن نفسه بجهده، وقبض يده فمدها عمر، فقال أبو بكر: أنت أنت يا عمر، أنت أقوى وأشد، فقال عمر: شدتى لك أنت أحق، أنت خليفة رسول الله ﷺ، رضيك لنا؛ فما زالوا به حتى بايعوه.

فانظر إلى طول هذه المراجعة بين المهاجرين والأنصار وهم يطلبون ويفتشون ما يجوز فى دين رسول الله ﷺ، ويرجعون إلى أفعاله ووصاياه، ويبتغون مرضاته، هل تجد أحدا منهم يذكر عن رسول الله ﷺ نصاً على رجل بعينه أو ما يشبه النص أو ما تأويله النص من أنه كتاب الله أو من حديث عن رسول الله ﷺ، والعهد قريب وهو يوم موته، ولم يدفن بعد وهذا موضع

---

(١) في شرح الجامع الصغير للمناوي ٢:٤٦٢ . وقد ورد في مسند ابن حنبل ومسلم عن جابر. بلفظ آخر.

الحاجة إلى ذكر ذلك؛ والمناظرة والمباحثة تذكر بالأمور البعيدة وتخرج الغوامض فكيف بالأمر الواضح مع العهد القريب؟

وما أراد الأنصار بالبدار إلى إقامة أمير يكون على الناس إلا الله، وإلا إحياء الإسلام وقمع أعداء رسول الله ﷺ، لينضبط الأمر ولا ينشر؛ فقد كان معهم وحولهم اليهود وقبائل العرب من النصارى، وقد كانوا راسلوا ملوك الروم وأطمعوهم فى الإسلام، ومسيلمه مقيم على حربهم وكذا طليحة، وقد ارتد من ارتد، فكان الصواب فى المبادرة إلى إقامة أمير.

فلما قيل لهم: إن رسول الله ﷺ قد قال: «الأئمة من قريش» سمعوا وأطاعوا وقصدوا إلى أفضل قريش فى أنفسهم فعقدوا له وقاتلوا بين يديه كما كانوا يقاتلون بين يدى رسول الله، وتفانوا فى طاعته ولو أرادوا الملك والدنيا لما أطاعهم المهاجرون ولا غيرهم، فإن البلاد بلادهم، والبادية باديتهم، والبأس والنجدة والكثرة لهم وفيهم، وإنما المهاجرون ضيفانهم ونزال عليهم، وبهم عزّوا، وبهم صار رسول الله ﷺ فى عساكر وجماعات، وبهم غزا العدو وقد كان ﷺ وهو مقيم بمكة منذ دعا إلى النبوة خمسة عشر سنة يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب، ويتلو القرآن، ويدعو إلى الله، فسمعته قبائل الأوس والخزرج، وأصغوا إلى دعوته، وأجابوه إلى معاداة ملوك الأمم وجبابرة الأرض فى طاعته، وأن ينفقوا أموالهم، ويسفكوا دماءهم فى نصرة دينه، وأن يطيعوه حياً وميتاً، فلما أجابوه إلى ذلك، أمر أصحابه بالهجرة إليهم، فقبلوهم وأظهروا الإسلام فى المدينة وفى قبائلهم وبواديهم، فهاجروا إليهم فوفوا بجميع ذلك، وكان باطنهم فى الإيمان كظاهرهم، فلهذا أسماهم الله الأنصار وكذا المهاجرون، ولهذا قال الله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1] فأخبر عزّ وجل عن صحة نياتهم وصدق

(١) سورة الحشر آية ٨ .

ضمائرهم، وشهد لهم بالصدق، ثم ذكر الأنصار وقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] لأن الأنصار كانوا بالمدينة قبل المهاجرين، فلما جاءهم المهاجرون أحباب رسول الله ﷺ آثروهم على أنفسهم بمنازلهم، وشاطروهم أموالهم بطيب من أنفسهم.

فشهد لهم بالفلاح، وفرض على من جاء من بعدهم موالاتهم والاستغفار لهم فقال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

وأمرهم بالتعوذ من بغضهم وعداوتهم، فهؤلاء الذين قاموا بدين رسول الله ﷺ بعده، وهم الذين اختاروا أبا بكر، والقرآن مملوء بمدحهم والثناء عليهم، وأنت تحفظه؛ فارجع إلى ما في سورة بعد سورة من ذلك وتدبره، فذكر جميعه يطول ولا يحتمله هذا الموضع.

فهم لما بايعوا أبا بكر سكنت نفوسهم، وباتوا وكأن رسول الله ﷺ لم يمت ولم يفقد من بينهم، فهذا الذي قصدوا بالبدار، وهم كانوا أعلم بما يباشرونه ويقولونه، وقد علموا أنهم قد وتروا الأمم كلها في طاعة رسول الله ﷺ؛ فقد خلفهم ولا أمير عليهم، فخافوا أن يبيتوا وقد فقدوا نبيهم وليس عليهم أمير فينشر أمرهم، فلشدة اعتمام هؤلاء بحراسة الإسلام بادروا إلى من يعقدون له، وإنما ذكرت لك هذا لتعرف الحال فإن من لا يعلم ومن همه الطعن في الإسلام يدعي عليهم أنهم فعلوا ذلك حباً للدنيا ولسرورهم بموت رسول الله ﷺ، ولاغتباطهم بالراحة.

وأنت تجدهم وقد شهدت أفعالهم بأنهم بعد موته أشد حباً له، وأشد بصيرة في دينه.

---

(١) سورة الحشر آية ٩ .

ثم إن أبا بكر عاد من السقيفة وقام خطيباً، وأخبر المهاجرين ما كان وقال: والله ما أردت الإمارة، ولانويتها، ولا تمنيتها فى يوم ولا ليلة، ولا رغبت فيها، ولقد حرصت أن أجعلها فى عمر فما تركت، وإنما قبلتها خشية الفتنة، ولأنه لم يكن علىّ أمير، وقد رجعت أموركم إليكم فأقيلونى وولوا من شئتم. فقال له علىّ: والله لا يقيلونك ولا يستقيلونك، رضيك رسول الله لديننا فرضيناك لدنيانا، فدّمك رسول الله فمن ذا يؤخرك فصوّب الصحابة جميعهم قوله واستحسنوه.

وانظر اعترافهم أن رسول الله ﷺ قد أعطى أبا بكر أكثر مما اعطوه، وعجب على رضي الله عنه من طمع الأنصار فى الإمارة، وقال: أما سمعوا قول رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالأنصار خيراً، أقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن ميئهم»، فل كانوا هم الأمراء لكانت الوصيه لهم لا فيهم، ولكن نتجاوز لهم كما وصى رسول الله ﷺ، والله يرحم الأنصار.

فإن قال: أنهم لم يعارضوا أبا بكر خوفاً وتقية، فقد بيّنا غير مرة أن سلطان هؤلاء الخلفاء الأربعة لم يكن سلطاناً يتقيه محق.

وقيل: إن أباسفيان لقى على بن أبى طالب بعد البيعة لأبى بكر فقال له: يا أبا الحسن، ما بال هذا الأمر فى أقل حىّ من قريش، إنما هى بنو عبد مناف، إن شئت ملأتها على أبى بكر خيلاً ورجلاً، فقال له على: ما أريد ذلك إنا رأينا أبا بكر لها أهلاً، وإنى لأعد بيعتى له من جهادى مع رسول الله ﷺ، ثم أتى أبو سفيان العباس وبنى هاشم فقال: ما لنا ولأبى فضل[1]، إنما هى بنو عبد مناف، يا بنى عبد مناف ذبوا عن مجدكم وانصحوا عن سؤددكم، ولا تخلعوا تاج الكرامة إذ ألبسكم الله فضلها، إنها عقب نبوة، من قصر عنها اتبع، ومن ذبّ عنها اتبع؛ فقال العباس: إن الإسلام قيد الفتك وأخذ بعنان الباطل، فأمهل نراجع الفكر، فإن يكن لنا من الأمر مخرج نبسط أكفاً للجد لا

(١) كذا في الأصل، ولعلها بكر.

نقبضها أو نبلغ المدى، وإن تكن الأخرى فلا لقلة فى العدد ولا وهن وفى الأيد.

فأنكر على قول أبى سفيان، ونهى بنى هاشم عن الخلاف، وقال لهم: عرجوا عن طريق المنافرة وحطوا تيجان المفاخرة. وقال لأبى سفيان: يا أبا سفيان، إن المسلمين قوم نصحة وإن تباعدت أنسابهم، وأن المنافقين قوم غششة وأن تقاربت أنسابهم، ياأبا سفيان، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم يضره ذلك شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً، ولو لم نره أهلاً لما ولياه.

وقد ذكر من هذا أمير المؤمنين على رضي الله عنه بعد مضى عثمان فى رسالته إلى معاوية إذ يقول له فى فصل منها: وقد كان أبوك أتانى حين ولىّ أبو بكر رحمه الله الناس، فقال أنت أحق بهذا الأمر بعد محمد ﷺ فهلم أبايعك وأنا بذلك على من خالفك، فكرهنا ذلك مخافة الفرقة. فكان أبوك أعرف بحقنا منك، فإن تعرف منه ما كان يعرف تصب رشدك، وإلا فسيغنى الله عنك.

وقد ذكر معاوية هذا المعنى لابن عباس وبنى هاشم حين أخذ الأمر من الحسن، فقالوا له: اغتصبت وأخذت ما ليس لك، فقال لهم: إن كان أمر الخلافة يستحق بالقرابة دون الرضا والإجماع فما منع العباس منها وهو عم رسول الله ﷺ وقد ضمن له أبو سفيان بنى عبد مناف؟ فكان جوابهم أن ذاك أمر رضيه المهاجرون والأنصار واجمع عليه المسلمون، وأنت فما رضيناك.

وما كنا فى صحة إمامة أبى بكر، وإنما كنا فى أن الصحابة فى كل زمان وأوان يخوضون فيمن يصلح للإمامة ولا يذكرون عهداً من رسول الله ﷺ فى إنسان بعينه مع حاجتهم إلى ذلك، بل يجمعون على العمل بالاختيار، فعرض لنا ما كان بين بنى عبد مناف، فذكرنا قول بنى هاشم، وإن أبا سفيان أحب أن تكون الخلافة فى بنى هاشم لأنهم أهله وأقاربه من بنى عبد مناف، ولأن السؤدد والرئاسة كانت فيهم قبل الإسلام.

ولهذا قال خالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن وقد قدم بعد وفاته وقد بايع الناس أبا بكر فعجب من كون الخلافة فى أبى

بكر دون العباس أو على أو عثمان فهؤلاء أعمام رسول الله ﷺ وبنو[1] أعمامه، فقال لعثمان وعلى وقد أتياه ليسما عليه حين قدم من سفره: أرضيتم بنى عبد مناف أن يلى أمركم بنو تيم، فقال على: رضينا، فقال خالد: أنتم الشجر الطوال ذوات الظلال فإذا رضيتم رضيناه.

فولاية أبى بكر، وتقدمه على أهل رسول الله وأعمامه وبنى أعمامه وهم كثرة وفى عزة ومنعة وفيهم اليسار وليس بأبى بكر شئ من ذلك من العجائب، ولهذا قال أبو قحافة وقد جال الناس جولة وهو بمكة: ما هذا؟ قالوا: مات رسول الله ﷺ، قال فما صنع الناس بعده قالوا: أقاموا ابنك مقامه، قال: أفرضيت بنو عبد مناف؟ قالوا: نعم، قال أفرضيت بنو المغيرة؟ فقالوا: نعم، قال: ودانت لرجل من تيم؟ قالوا: نعم، قال: فلا مانع لما أعطى الله.

فعجب أبو قحافة من تقدم ابنه والسيادة والرئاسة إنما كانت فى بنى عبد مناف وبنى المغيرة من بنى مخزوم دون بنى تيم، فلما قدّم المهاجرون والأنصار ومن كان على دين رسول الله ﷺ ابنه ابا بكر، علم أن ذلك الإسلام ومن قبل الله، وأن ابنه قدكان أولى بالحسد والإبعاد، ولكن القوم رجعوا فى توليته إلى الدين والإسلام دون الأحساب والأنساب.

ولما بلغ أهل اليمن والبحرين وعمان قالوا لعمال رسول الله ﷺ: هذا الذى بايعه الناس بعد رسول الله ﷺ ابنه أو أخوه؟ فقيل لهم: لا، قالوا: فأقرب الناس منه؟ قيل: لا، قالوا: فما شأنهم؟ قيل اختاروا أخيرهم فأمّروه عليهم، قالوا: لن يزالوا بخير ما صنعوا هذا.

فتأمل رحمك الله حال القوم لتعرف حقيقتها وتعلم أنها بالضدمما قاله هؤلاء، فقد طال العهد وقل التأمل.

---

(١) في الأصل: بني.

وباب آخر
[غزو المرتدين ومانعى الزكاة]

وهو أن أبا بكر غزا اليمامة، ومسيلمة، وربيعة، وطلحة، وبنى أسد، وتلك القبائل المرتدة، ومانعى الزكاة، مع إذعانهم بإقامة الصلاة، وأنكر رضي الله عنه[1] تغير دين رسول الله ﷺ، وأنه لا يقرهم على ترك خصلة واحدة من دينه ولا تعطيل شئ منه، وقد غزاهم بالمهاجرين والأنصار ونكل بهم كل التنكيل، وقتلهم ألوان القتل، وصنع بالرجال والنساء منهم من النكال ما يطول شرحه لأنهم غيروا دين رسول الله ﷺ، وعطلوا حدوده، فما استطاعوا أن يقولوا لأمراء أبى بكر لم تنكرون علينا هذا وأنتم قد عطلتم نصوص صاحبكم، وغيرتم دينه، وبدلتم كتابه، وانصرفتم عن وصيه وعمّن استخلفه، وضربتم ابنته، وقتلتم جنينها فى بطنها، وهذا موضع حاجة هؤلاء إليه، ولو كان لذلك أدنى إشغارة لعوّلوا عليه واستراحوا إليه، فعلمت أن ما يدّعيه هؤلاء لا أصل له.

ولو كان بدا منهم شئ لكان العلم به أقوى مما كان بين أمير المؤمنين وأهل النهر، وبينه وبين أهل الشام وغيرهم.

وباب آخر
[أبو بكر يطلب الإقالة]

أن أبابكر لما قتل مسيلمة، وأسر طلحة، ورد أهل الردة، واستولى على جزيرة العرب الإسلام وأنفذ جيوشه إلى العراق واستظهر المسلمون، قام فى المسلمين خطيباً فقال: أن أموركم قد عادت إليكم وبحمد الله استظهرتم على عدوكم فأقيلونى فقد تقلدت أمراً ما كان لى فيه راحة ولا يدان إلا بمعونة الله، فقال له على رضي الله عنه: ما يقيلونك ولايستقيلونك، وما منك بدل ولا بدل عنك حول، ومشى فى الناس ثلاثاً يستقيل فما أقالوه.

---

(١) في الأصل: عنهم.

وباب آخر

[استخلاف عمر]

أن أبا بكر لما مرض مرض موته قال: يا ليتنى يوم ظلة بنى ساعدة قد كنت وليت عمر أو ابا عبيدة، فكنت أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، وليتنى حين بعثت خالداً إلى الشام كنت بعثت عمر إلى العراق فكنت قد بسطت يمينى وشمالى. ثم عزم على استخلاف خليفة يكون بعده، وأخذ يشاور فى ذلك؛ فقال لرهط من المسلمين: إن وليت عليكم رجلاً منكم أترضون؟ فقال علىّ بن ابى طالب: لا إلا أن يكون عمر، فأمسك؛ ثم خلا بعبد الرحمن بن عوف وشاوره فى عمر وأخذ رأيه فيه ثم قال له: اكتم يا أبا محمد ما كان بيننا إلى أن أقوله لك، ثم شاور عثمان بن عفان، ثم شاور اسيد بن حضير فى رهط من الأنصار فى ذلك، فقال له اسيد: ما أعلمه إلا الخيرة بعدك لولا ما فيه من شدة فقال له أبو بكر: يا ابا يحيى إنى قد رمقته، فكنت إذا شددت فى الشئ أرانى فيه اللين، وإذا لنت فى الشئ أرانى فيه الشدة، ولو قد وليكم للآن واشتد.

ثم أظهر أبوبكر الأمر للناس وذكر لهم رأيه فى عمر، فقال طلحة وغيره: إن عمر رجل مهيب، له هيبة وليس بخليفة، فكيف إذا صار خليفة؟ فاعدل بنا عنه إلى رجل هو أخفض جناحاً وألين جانباً فكان جواب أبى بكر ما قد تقدم؛ فكيف يظن عاقل تدبر الأمور أن هناك رجلاً قد أقامه رسول الله ﷺ وفرغ لهم منه، وكلهم ومعهم ذلك الرجل الذى يدعى هؤلاء، يطلبون رجلاً يصلح فى دين رسول الله وعند رسول الله للقيام بأمر أمته؟ وهل هذا إلا كقائل قال فى جماعة كثيرة قيام فى الشمس وهم يطلبون الشمس ويسألون عن الشمس،، وتأمل الحال، وكيف ينطق كل واحد بما عنده وبما يراه، غير راهب ولا خائف من الأنصار ومن المهاجرين ومن أبى سفيان ومن بنى هاشم ومن خالد بن سعيد لتعلم سلطان هؤلاء الخلفاء كيف كان.

فكان المسلمون يفرغون إلى أبى بكر فى كل صغير وكبير، فيقول لهم: أتظنون أنكم تجدون عندى ما كنتم تجدونه عند رسول الله ﷺ، لا تجدون

ذلك، إن رسـول الله ﷺ كـان يـأتيـه الوحى، وإنمـا أنا مـثلكم، فـإن أحـسنت فأعينونى وإن زغت فقومونى؛ ويسأل عن مسألة فيقول: أقول فيها برأى، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان، فيستحسن المسلمون هذا منه ويحـمـدونه عليـه،، ولا يقـول قـائل كـيف يزيغ إمـام المسلمـين وكيف يخطئ، وعند الإمامية إن إمام المسلمين لا يخطئ ولا يزل.

وقد قـال عـمر أيضـاً مثل قـول أبى بكر مرات كثيرة، وقـال عثمـان مثل ذلك.

ومـا بلى به على ومـا قـاله فى هذا البـاب فـأكثـر ممـا ابتلى به أبو بكر وعمر وعثمان،، فإنه ابتلى من أهل زمانه ومن أصحابه طول خلافته بالإضلال والإكفار فما احتج هو لنفسه بالنص ولا بالعصمة، ولا احتج له من فى زمانه ممن كان يخاصم عنه من ولده وأهل بيته وشيعته بشئ من ذلك، وكانوا وكان هو أيضـاً لا يأبون أن يجوز عليه ما يجـوز على أهل الشـورى وعلى الخلفـاء قبله. وكان ما يتدين به من الاختيار أكثر وأشهر مما كان من الخلفاء قبله.

ولهـذا قـالت العلمـاء: إن العلم بـأن رسـول الله مـا نص على علىّ ولا استـخلفـه أقـوى مـن العلم بـأنه مـا نصّ على بـلال، أو عـمـار، وأبى ذر، أو ابن مسعود، فإنه رضى الله عنه قد بقى بعد الخلفاء خليفة وإماماً معه مائة ألف سيف تطيعه، وقد نازعه خلق كثير فى الإمامة وناظروه، وادّعوا عليه الخطأ والضلال والإكفار، فما ادّعى النص ولا العصمة ولا احتج فى مشافهة ولا مراسلة ولا مكاتبة بشئ من ذلك، بل كان يحتج بأن طاعتى وجبت لأنه بايعنى الذين بايعوا ابا بكر وعمر وعثمان، فوجبت طاعتى كما وجبت طاعتهم.

ومن نعمة الله على المسلمين أن بقاءه رضي الله عنه بعد الخلفاء خليفة وإماماً وسلطاناً ومعه مائة ألف سيف تطيعه،، فما سار فى تركات رسول الله ﷺ إلا سيرة ابى بكر وعمر وعثمان، ولا حبا السواد ومصر وفارس وأرمينية وأذربيجان وخراسان إلا ما حباه الخلفاء قبله، ولا قرأ إلا المصحف، ولا أقرأ أولاده والناس إلا هذا المصحف، وملك الأرض كان كله بيده إلا كرة فلسطين،

وأقام التراويح بنفسه وأقامه عماله فى ممالكه كلها، وكان يقيم إماماً للنساء فى التراويح، وأثنى على الخلفاء قبله بما يطول شرحه وقد ماتوا وبلوا، وهو يلعن معاوية ويبرأ منه وهو حى ومعه أكثر من مائة ألف سيف، وكذا صنع بالخوارج. فهو لا يخاف الجبابرة الأحياء، وعند الإمامية أنه قد خاف الموتى وهو سلطان عظيم الشأن،، وقد بيّنا أن هؤلاء فى حياتهم وسلطانهم ما كان يخافهم محق(١).

فإن قيل: ومن سلم لكم أنه كان يقيم التراويح، بل يقول أنه قد نهاهم عنها، فقالوا: واعمراه، فلما قالوا ذلك، أقامها لهم.

قيل له: لا فرق بين من ادعى هذا، أو ادعى أنه قد كان نهاهم عن هذا المصحف فقالوا وامحمداه، أوقال: قد كان نهاهم عن هذه الصلاة وقال لهم: لها باطن وهى شخص، ألا تسمعونه يقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا ينهى إلا الشخص كما يدعيه عليه الإسماعيلية فصاحوا وامحمداه، أو كمن ادعى أنه كان يعيد فى آخر ذى الحجة ويقول: هذا اليوم الذى نص علىّ فيه رسول الله ﷺ واستخلفنى كما يفعل الإمامية ذلك فى زماننا ببغداد، وأنه كان يقيم المناحات بالشعر على فاطمة وابنها الحسن الذى زعم الإمامية أن عمر قتله، كما يفعل الإمامية ذلك ببغداد والكوفة. وبأى شئ يعلم العاقل المتأمل أن العباس وولده وبنو هاشم كانوا يقيمون التروايح إلا والعلم الذى يعلم به أن علياً كان يقيمها بنفسه وعامله قرظة بن كعب(٢) بالكوفة وعاملة بالبصرة وبمكة والمدينة وسائر بلدان الإسلام التى فى ملكه وسلطانه أقوى وأقهر.

ولو ادّعى مدّع أن ابن مسعود بالكوفة وابا عبيدة ومعاذ بن جبل بالشام كانوا لا يرونها ولا يقيمونها، هل كانت الدلالة على بطلان دعواه إلاّ ظاهرة الدلالة على بطلان من ادّعى ذلك على أمير المؤمنين أقوى وأقهر. والعجب

---

(١) في الأصل: يخاف.

(٢) في الأصل: كعب بن قرظة.

أن رؤساءهم والذين لقنوهم هذا المذهب قد قالوا: إنه أقام التراويح.

وإذا قيل لهم: هبكم أنكم ادعيتم أنه كان فى زمن أبى بكر وعمر وعثمان كان مغلوباً مقهوراً، فما باله حين مات هؤلاء، [و][1]صارت الخلافة إليه وصار السلطان بيده والفىء يجيئ إليه فيعطيه من يرى وهو فى العساكر والجيوش، لم يدّع[2] النص وتعطيل التراويح ويظهر المصحف الذى تدعون ويسير فى أموال رسول الله ﷺ ما تدعون ويظهر البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان سيما وقد ماتوا، كما أظهرها فى معاوية والخوارج وهم أحياء وفى عساكر؟

قالوا: ما فعل ذلك ولا قدر عليه لأن جنده وأعوانه من المهاجرين والأنصار والتابعين بعدهم كانوا أولاياء أبى بكر وعمر، فلو اتهموه ببغضهم لقتلوه، فما زال مظهراً لنصرتهم وموالاتهم إلى أن خرج من الدنيا.

قالوا: وكذا فعل الحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين.

والآن يدعى هذا المدعى فى هذا الزمان أنه كان قد نهى عن التراويح، فلما صاحوا واعمراه خافهم فتقدم وأقامها لهم، فما يجرى كلامهم على تحصيل ولكن كما يسنح لهم.

ومما كان ينبغى أن يقدم قبل هذا، ما كان من عهد عمر حين جرحه فيروز النصرانى، فإنه ورد على علىّ والمهاجرين والأنصار وجميع المسلمين من ذلك ما ذهلت له عقولهم أسفاً عليه؛ فإنه قد كان دوّخ ملوك الفرس والروم وأذلهم، وغلب على ممالكهم، وألجأهم إلى الهرب، وبلغت خيوله افريقية وأوائل خراسان وأوائل الهند، فذلّ الشرك كله به،، وغزا الإسلام بمكانه وسلطانه. فخاف المسلمون أن تكرّ ملوك الشرك عليهم بفقده، فاجتمعوا وانفردوا عنه مفكرين، وأملوا أن يبتدئ ويستخلف عليهم.

فدخل عليه أهل الأمصار فقالوا له: أوصنا يا أمير المؤمنين.

---

(١) في الأصل: صارت.

(٢) في الأصل: يدعي.

قال: أوصيكم بالقرآن فتمسكوا به، فيه هدى الله نبيكم وهداكم من بعده، وفيه نجاتكم.

قالوا: أوصنا،، قال: أوصيكم بالمهاجرين والأنصار وذكر فضلهم.

قالوا: أوصنا، قال: أوصيكم بالعرب فإنهم مادة الإسلام، قالوا: أوصنا، قال: أوصيكم بذمتكم فإنهم ذمة نبيكم وقوت عيالكم.

قالوا: أوصنا، قال: قوموا عنى وإلا قمت عنكم.

فلما رآه أصحاب رسول الله ﷺ لا يذكر أحداً للخلافة دخلوا عليه، وابتدأ ابن عباس يسأله الاستخلاف؛ وافتتح الكلام، فقال: قد توليتها حياتى واجتهدت لكم رأيى ونصحب لكم جهدى ومنعت نفسى وأهلى، وأرجو أن أنجو منها كفافاً لا علىّ ولا لى؛ فأثنوا، وابتدأ علىّ يبشره عن رسول الله ﷺ بالجنة، وقال له: وأشار إلى ابن العباس يشهد على رسول الله ﷺ بمثل ما شهدت،،،

وشيع غيرهما ذلك وسألوه الاستخلاف، فقال: ما أحب أن أتحملها حياً وميتاً، قالوا: بل تفعل، ولك فى ذلك الأجر؛ انظر يا أمير المؤمنين لأمة محمد ﷺ، فقال: دلونى على من استخلف، فقال له المغيرة: أنا أدلك عليه: عبد الله بن عمر، فقال له عمر: والله ما أردت بذلك الله، فقال له ابن العباس: يا أمير المؤمنين،،، وما يمنعك من إخوانك، وأشار إلى على وعثمان وعبد الرحمن وتلك الجماعة.

فقال عمر: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى -يعنى أن رسول الله ﷺ ما أستخلف وأن أبا بكر استخلف- ثم قال هى فى واحدٍ من هؤلاء الستة الذين شهد لهم رسول الله بالجنة وقبض وهو عنهم راض: على وعثمان ابنا عبد مناف، وسعد وعبد الرحمن خالا رسول الله ﷺ، والزبير حوارى رسول الله ﷺ، وطلحة وقاية رسول الله. ثم حذر كل واحد منهم من خلق كرهه له.

وقال لعلى: إن وليت هذا فاعدل ولا تحمل بنى هاشم على رقاب الناس، ثم أقبل على عمار ومقداد فى أن يكونا فى ثلاثين من المهاجرين،، وقال لأبى طلحة الأنصارى: إن الله لم يزل يعز هذا الإسلام بقومك فكن فى خمسين منهم، فإذا متّ فليصل علىّ صهيب، وليصل بالناس إلى أن يقيموا خليفة، وكونوا عليهم رقباء لئلا يستبد مستبد، وقال: لا يأتى اليوم الثالث إلا وقد أقمتم أحداً من هؤلاء الستة خليفة، وجدّوا فى أمركم، وجاهدوا عدوكم.

فلما قبض أنفذوا وصيته كما رسم، فكم فى هذا من شاهد على بطلان دعاوى هؤلاء القوم، وما حاجة الصحابة أن يختار لهم عمر خليفة وقد فرغ لهم من ذلك رسول الله ﷺ وهو قائم العين نصب أعينهم. وأعجب من هذا قول عمر وهم يسمعون أن رسول الله ﷺ ما استخلف، وأعجب منه أن الذى يدّعون أن رسول الله استخلفه معهم فى أن رسول الله ﷺ ما استخلف، وأن الخلافة بالاختبار لا بالنص،، وأنها فى واحد منهم وفيهم الهاشمى والأموى والزهرى والتيمى والأسدى، ففيمن كانت منهم كان صواباً، لا ينكر ذلك أحد من المسلمين. وأعجب من هذا قوله لعلى: إن ولوك فاعدل ولا تحمل بنى هاشم على رقاب الناس، فكيف لم يقل له: ما أحتاج إلى توليتهم لى؛ ولأنى رسول الله واختارنى وشهد بعصمتى، وكيف تقول هذا لى؛ وكيف تقول إن رسول الله ﷺ ما استخلف؟

وباب آخر

أن علياً والجماعة ردوا الأمر إلى عبد الرحمن ليختار واحداً منهم للخلافة وعليهم الرضا بحكمه، فقال لهم: تكلموا فأخبروا الناس بذلك،، فتكلموا، وقام أمير المؤمنين علىّ رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لجالدنا عليه حتى نموت، أو قال لنا قولاً انفذنا قوله على رغمنا، لن يسرع أحد قبلى إلى صلة رحم ودعوة حق، والأمر إليك يا ابن عوف وعلىّ صدق اليقين وجهد النصح وأستغفر الله لى ولكم، فلم يقل[1] رضى الله عنه إن رسول الله ﷺ ما ولاّه ولا ولّى عليه.

---

(١) في الأصل: يقول.

ثم انظر فى باب آخر فى أمر عثمان وما لحقه فى آخر أمره من الإعراض والخصومة، حتى تجرأ عليه العبيد والنساء والصغير والكبير، هل قرّعه أحد من خصومه وأعدائه بأنه جلس فى غير مجلسه؟ وقد بالغوا فى التشنيع عليه، وهو كان يسمى الخليفة المستضعف، فكيف لم يتقدم الخليفة المنصوص عليه فيأخذ الأمر من هذا الذى قهر وحصر.

وأعجب من هذا، أن المصريين أتوه رضى الله عنه بعد أن مضى عثمان فقالوا: امدد يدك نبايعك، فقال: ليس هذا إليكم، هذا للمهاجرين والأنصار، من أمّره أولئك فكان أميراً. فانظر كم يقول إن هذا أمر المسلمين وأنه بالاختيار، ثم أن المصريين انصرفوا عنه، فجاءه المهاجرون والأنصار، فقالوا: امدد يديك نبايعك، فقال لهم: اختاروا غيرى تبايعونه وأبايعه، فلأن أكون بكم وزيراً خير من أن أكون أميراً. فدفعهم عن نفسه، فعاودوه فقال لهم: إن عمر كان رجلاً مباركاً وقد جعلها شورى، قالوا: فأنت من الشورى وقد رضيناك،، فقال: اختاروا غيرى، فدفعهم،، فعادوا فقال قد علمتم أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، قالوا: قد رضيناك،، فدفعهم ومشى إلى طلحة والزبير فعرضها عليهما، وقال: من شاء منكما بايعته، فقالا: لا، الناس بك أرضى، فترددوا إليه وهو يأبى ويقول: اختاروا غيرى فيقال إنهم اختلفوا إليه بعد مضى عثمان ثمانية أيام، ومنهم من يقول [ ][1] يوماً وهو يقول: اختاروا غيرى أبايعه وتبايعونه.

هذا وقد مات أبو بكر وعمر وعثمان وما هناك سلطان ولا خليفة، فأين ما ادعيتموه؟ ثم أنه لما اتوا وألحوا عليه فقال بعد الحمد والثناء والصلاة: أيها الناس، إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأتقاهم لله، ولا يحل بعد إلا برضى المهاجرين والأنصار، فإذا رضوا لم يكن الخيار، فإن شغب شاغب استتيب، فإن أبى قوتل حتى يفىء إلى أمر الله.

فانظر إلى هذا البيان والكشف، وأن الإمامة بالاختيار، وأنها إلى

---

(١) فراغ في الأصل.

المهاجرين والأنصار، فقالوا نبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله، فإن لم تف فلا بيعة لك، قال: نعم.

ثم خطبهم فقال بعد الحمد والثناء والصلاة على النبى ﷺ مقدار نعم الله على الخلائق برسول الله ﷺ، ثم قال: إن الله يعلم إنى كنت كارهاً للولاية على أمة محمد ﷺ حتى اجتمع رأيكم على ذلك لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ايما وال ولى الأمر بعدى أقيم على حد الصراط، ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً انجاه الله بعدله، وأن كان جائراً انتفض به الصراط انتفاضة حتى تتزايل ما بين مفاصله، ثم تتحرق به الصراط فيكون أول ما يتقى به النار انفه وحر وجهه، ولكن لما اجتمع رأيكم لم يسعنى تركككم. أقول ما سمعتم، واستغفر الله لى ولكم.

فانظر إلى هذا ففيه أتم كفاية، وانظر إلى بيانه أن الإمام يجور ويخطئ ويزل.

وخطبته المشهوره بالعراق التى لا يستطاع دفعها:

أيها الناس، أنه لما توفى رسول الله ﷺ بايعتم أبا بكر فبايعت ورضيت، ثم بايعتم عمر فبايعت ورضيت، ثم بايعتم عثمان فبايعت ورضيت، حتى إذا مضى عثمان تداككتم[1] علىّ كتداك عرف الصبع، فمددتم يدى فقبضتها وقلت: اختاروا لأنفسكم فأبيتم إلا مبايعتى، حتى إذا كثر الجمع ووطئ الحسبان وشق عطافه، فأبيت إلا أن تكون بيعتى ظاهرة مكشوفة على منبر رسول الله ﷺ وفى مسجده، فبايعنى كل، لا أرى منكراً، فلما فلدتمونيها نكث ناكثون ممن بايعنى وقسط قاسطون، فلم أجد إلا قتال من بغى ومحاكمة من اعتدى إلى كتاب الله؛ وليس يجب إنكار إمامة من عقدت له الإمامة إلا أن يجور فى حكم، أو يعطل حداً، أو يضعف عن القيام بها؛ فوالله ما عطلت لكم حداً، ولا جرت عليكم فى حكم، ولا ضعفت عن القيام بالإمامة، فأوجبوا لى

---

(١) تهالكتم.

على أنفسكم مثل ما أوجبتموه لمن تقدمنى من أبى بكر وعمر وعثمان يرحمهم الله.

فانظر كيف يذكرهم ببيعة الخلفاء قبله ورضاه بهم، ويجعلهم إجماعاً وحجة على الأمة، ويذكر أنه صار إماماً ببيعتهم له، وأنهم هم قلدوه إياها، وأنه لا يحل إنكار إمامة الإمام إلا أن يجور فى حكم، أو يعطل حداً أو يضعف عن القيام بها، وأن هذا جائز على كل إمام بعد رسول الله ﷺ، وهو رضى الله عنه أعلم بنفسه وبدينه وأفقه فى دين الله، فينبغى الرجوع إلى قوله لا إلى قول هؤلاء.

وقد قال فى خطبه له بالمدينة وهو يأمر الناس بتفقد أفعاله وأحكامه: رحم الله رجلاً رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً بالحق على من خالفه.

وقد قال الحسن إبنه رضى الله عنهما لأهل الكوفة حين استنفرهم إلى أبيه: يا أيها الناس، إن أمير المؤمنين يقول إنى خرجت مخرجى هذا ظالماً أو مظلوماً، وإنى أذكر رجلاً رعى الله حقاً على نفر، فإن كنت مظلوماً أعاننى.

وإن كنت ظالماً أخذ منى.

ومن مقاماته بالبصرة يوم الجمل بعد انقضاء الحرب فقال: أين مثوى القوم؟ قالوا: صرعى حول الجمل، فقام خطيباً فقال بعد حمد الله والثناء: توفى رسول الله ﷺ ولم يعهد إلينا فى الإمارة عهداً فنتبع أثره، ولكنا رأيناها من تلقاء أنفسنا، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمنا ومن الشيطان. استخلف أبو بكر ويرحم الله أبا بكر فاستقام وأقام، ثم استخلف عمر ويرحم الله عمر فاستقام وأقام، ثم ضرب الدين بحرانه، يرحم الله من يشاء ويعذب من يشاء.

ثم القول الذى كان يقوله ويعيده ويبديه ويذكر أيام الإلفة والاستقامة وما حدث بعد ذلك من الخلاف فى آخر أيام عثمان: سبق رسول الله ﷺ،

وصلى أبو بكر، وثلّث عمر، ثم خبطتنا فتنة فما شاء الله -قوله ما شاء الله على طريق الاستغاثة بالله لأن الله يشاء نصرة الحق ولا يشاء الله الباطل- أى اللهم افعل ما تشاء، قد قال الحسن البصرى فيما حكاه الله عن أحد الرجلين: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[1] أى ما شاء الله من شكره وحمده والرجوع إليه.

ولما فرغ أمير المؤمنين من أمر البصرة وبلغه خلاف معاوية وندب الناس إلى حربه، دخل عليه ابن الكوّاء وقيس بن عباد اليشكرىّ وهناك أصحابه فقالا له: أخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت، تضرب ا لناس بعضهم ببعض ليتبين الناس أمورهم فتستولى بها عليهم، أمن رأى رأيته حين تفرقت الأمة واختلفت الدعوة أنك أحق الناس بهذا الأمر، فإن كان رأياً رأيته أجبناك فى رأيك، وإن كان عهداً عهده إليك رسول الله ﷺ فأنت الموثوق به والمصدق المأمون على رسول الله ﷺ فيما حدثت عنه.

قالوا: فتشهّد أمير المؤمنين وحمد الله وقال: لأنا والله أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه، أما أن يكون عندى عهد من رسول الله ﷺ فلا والله، ولو كان عهد من رسول الله ما تركت أخا تيم ابن مرة ولا ابن الخطاب على منبره ولو لم آخذ إلا بيدى هذه، ولكن نبيكم نبى الرحمة لم يقتل قتلاً ولم يمت فجأة، مرض ليالى وأياماً،، يأتيه بلال يؤذن بالصلاة فيقول له: ائت أبا بكر -وهو يرى مكانى- فما قبض الله نبيه ﷺ نظرنا فى أمرنا، فإن الصلاة أعظم الإسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضى رسول الله ﷺ لديننا، فولينا أبا بكر أمورنا، فأقام بين أظهرنا: الكلمة جامعة والأمر واحد، لا يختلف عليه منا اثنان، ولا يشهد أحد منا إلى صاحبه بالشرك ولا يقطع منه البراءة، فكنت والله آخذ إذا أعطانى، وأغزو إذا أغزانى، وأضرب بيدى هذه الحدود بين يديه.

---

(١) سورة الكهف - آية ٣٩.

فلما قبض أبو بكر ظن أن عمر أقوانا عليها وأحمل لها منا فولاها عمر، فأقام عمر بين أظهرنا: الكلمة جامعة والأمر واحد، لا يختلف عليه منا اثنان ولا يشهد أحد منا على صاحبه بالشرك، فكنت والله آخذ إذا اعطانى وأغزو إذا أغزانى، وأضرب بيدى هذه الحدود بين يديه.

فلما حضرت عمر الوفاة ظن أنه إن يستخلف فيعمل ذلك الخليفة بخطئه إلا لحقت عمر فى قبره، فأخرج منها ولده وأهل بيته وجعلها فى ستة رهط من قريش، وكان فينا عبد الرحمن بن عوف فقال: هل لكم إلى أن ادع لكم نصيبى منها على أن أختار لله ولرسوله والمسلمين، فقلنا: نعم، فأخذنا ميثاقه على ذلك، وأخذ ميثاقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه أمرنا، فضرب بيده على يد عثمان، فنظرت فى أمرى فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى، وإذا ميثاقى لغيرى فى عنقى، فأديت إلى عثمان حقه، وكنت أضرب بين يديه الحدود.

فلما قتل عثمان رحمه الله، نظرت فإذا الخليفتان[1] اللذان أخذاها من رسول الله بالعهد فى الصلاة هلكا ولا عهد لهما وإذا الخليفة الذى أخذها بمشورة المسلمين قد قتل وخرجت ريقته من عنقى وقتل ولا عهد له. فلما قتل، بايعنى أهل هذين الحرمين: مكة والمدينة، وأهل هذين المصرين البصرة والكوفة.

فجاء معاوية يقاتلنى مع أهل الشام وكنت أحق بالأمر منه: كنت مهاجراً وكان أعرابياً، وكنت سابقاً وكان طليقاً، كان لى الصحبة؛ قالوا: صدقت، انت أحق من معاوية.

فتأمل هذا الشرح والكشف وحصّل ما فيه، فلو لم يكن معك غيره لكان فيه أتم كفاية؛ وإنما سألوه هل معه فى ذلك عهد من رسول الله ﷺ ألقاه إليه وحده كما سأل عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلى عائشة وطلحة والزبير

---

(١) في الأصل: الخليفة.

كل واحد منهم على انفراده، هل معه العهد من رسول الله فى مسيره فكلهم قال: لا.

فإن قيل: قد علمنا أنه كان يأخذ إذا أعطوه، ويقيم الحدود بين أيديهم، ويعينهم، فمن أين لنا أنهم غزوه؟ قلنا: لو لم يكن معنا خبر بأنهم قد غزوه إلا هذا لكفى وأغنى.

وكان رضى الله عنه قد أنكر من معاوية تبسطه فى زمن عثمان فتنكر له، وأشار عليه بعض أصحابه فقال: أنت بقية الناس ولك حق الطاعة، فأقر ابن عامر ومعاوية وغيرهما فإنهم يبايعون لك الناس، ويهدئون البلاد ويسكنونهم. فقال له: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى، والله لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنى فى أمرى.

وكان المغيرة هو الذى أشار عليه بهذا، فلما قدم ابن عباس من مكة استشاره أمير المؤمنين فقال: ما ترى فقد أشار المغيرة بإقرار معاوية، فقال: قد نصح لك يا أمير المؤمنين فافعل واقبل، فقال: والله ما أشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا لأصحابها، وما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة ألا أولى منهم أحداً، فإن قبلوا ذلك فخير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف، وما عل إلا الاجتهاد.

فقال له ابن عباس: خلنى أولّه ثم انزعه من غير نقصان ولا إثم، فقال: لا أفعل، ما كنت متخذ المضلين عضداً، أخاف أن يظلم مسلماً أو معاهداً فأجده فى صحيفتى، لا أوليه ساعة واحدة. فراجعه ابن عباس فقال: لا يظلم، فقال: لا أشرك فى أمانتى إلا من ارضاه.

فانظر إلى هذه المكاشفة بالحق فى جميع أموره لتعلم فرية من نسبه إلى الخوف من المخلوقين وقولهم أنه كان يقى نفسه بدينه. وكان ﷺ إذا سئل المداراة وخوّف من الخلاف يقول: أبالموت تخوفوننى، فوالله ما أبالى سقطت على الموت أم سقط الموت علىّ.

وكان يقول: عليّ آنس بالموت من الطفل بثدى أمه، ومذ أمره الله ونهاه ما رأى منكراً قط ولا سمعه إلا رده وأنكره، ولا رأى معروفاً إلا شيده وقواه ونصره. وكان ظاهره كباطنه، وسره كعلانيته. وكان لا يخاف الجبابرة الطغاة الذين يخافهم البشر فكيف [يخاف][1] أبا بكر وعمر وعثمان، ولا يخاف سلطانهم محق ولو أنه عبد أو إمرأة أو ذمى كما تقدم شرح ذلك؟ لتعلم أن معونته لهم ونصرته لسلطانهم وطاعته لهم فى حياتهم وتنفيذه وصاياهم بعد موتهم لأنهم أئمة هدى.

وقد كتب ﷺ إلى معاوية: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان. أما بعد، فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه أماماً كان ذلك رضى لله، فإن خرج من أمرهم ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على ابتغائه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً.

فما دخل معاوية فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمر الىّ فيك العافية الا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت قاتلتك واستعنت بالله عليك، فقد أكثرت فى قتلة عثمان يرحمه الله، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على الحق وعلى كتاب الله، فأما تلك التى تريدها فهى خدعة الصبى عن اللبن.

ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ﷺ. واعلم يا معاوية إنك من الطلقاء الذين لا يحل لهم الخلافة، ولا يعرض فيهم الشورى، وقد أتاك ومن قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع، ولا قوة إلا بالله.

---

(١) كلمة (يخاف) ليست في الأصل.

فانظر هل يحتج الا بالاختيار وبالشورى وبالإجماع وبسنة الخلفاء قبله فهم عنده حجة وقدوة، وكم يقول ويبين أن الإمامة إلى المهاجرين والأنصار فمن بايعوه وعقدوا له كان إماماً؛ فهو يحتج بأن طاعته طاعة الخلفاء قبله، وعند الإمامية أن التدين بالاختيار وبالشورى والاقتداء بأبى بكر وعمر وعثمان شرك وكفر، وهم مع هذا يدّعون أنهم شيعة لأمير المؤمنين، فهل سمعت بأعجب من هذا.

وانظر مكاشفته بالحق لمعاوية، وقوله فى كل إنسان ما فيه، وقوله له إنك أظهرت الطلب بدم عثمان وما ذاك قصدك ونيتك، وإنما نيتك وقصدك وضميرك الملك والدنيا، ولم يكن لك سابقة فى الدين تحل لك بها الخلافة، فما تأخذه رضي الله عنه لومة لائم ولا يتقى أحداً من المخلوقين.

وكان يقول: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم خبث أعمالهم حين لم ينههم الربانيون والأحبار فيأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فإن ذلك لن يقدم من أجل ولن يؤخر رزقاً، وكان يقول: لا خير فى قوم لا يرون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرضاً، ولا خير فى قوم يأمن بينهم أهل المعاصى ويعملون بينهم بالكبائر، وكان يقول: قال لى رسول الله ﷺ: «أقرب الشهداء منى وأفضلهم عندى بعد حمزة وجعفر من قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»(١).

وكم له رضي الله عنه مثل هذا الكتاب إلى معاوية، يمدح فيه الخلفاء قبله، ويذم معاوية، وكم له من الرسل إليه فى هذا المعنى، وما رضى من إنكار المنكر حتى سافر إلى أهله بعد المكاتبة فشافههم به. فسار إلى معاوية ونزل بصفين، وأقام نحو الشهرين لا يحارب ولا يقاتل، ويقيم الحجة على معاوية، ويبين براءته من دم عثمان ومن خذلانه، وأنه قد بذل لعثمان النصرة فأباها عثمان وكره القتال، وأراد أن ينصرف القوم عنه راضين بغير قتال، وأنه ما ظن ولا

(١) انظر شرح الجامع الصغير ١: ٦٤، وقد أورده الحاكم عن جابر بلفظ آخر.

ظن عثمان أنه يقتل، وأن القوم اغتالوه وتسلقوا عليه وقتلوه ليلاً. ويستشهد على ذلك المهاجرين والأنصار.

ثم يحلف بعد هذا ويقول: والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله ولا رضيت ولا هويت، ويلعن قتلة عثمان ويقول: اللهم العن قتلة عثمان فى الليل والنهار والبر والبحر، ويرفع يديه بذلك حتى يبين ما تحت منكبيه.

وقد فعل مثل ذلك بالبصرة، فقال معاوية نصدقه، ولكن فى عسكره شناة عثمان وغزاته يسلمهم إلينا. إلى أن قال أهل الشام تُخلىّ معاوية على الولاية وهو يسمع ويطيع، فقال: لا أفعل، وسألوه فى ذلك فما أجاب.

فأتاه وفد أهل الشام وفيهم رجل يقال له حوشب ذو ظليم له قدر ونباهة، فقام فقال: ألا ترى يا على أن الله قد قسم لك قسماً حسناً فخذه بشكر، إن لك قدماً فى الإسلام وسابقة وقرابة من رسول الله ﷺ، وصهراً وتجربة وسناً، فإن تتلف بيننا غداً فإنه لبوار العرب وضيعة الحرمات، ولكن انصرف راشداً وخلّ بيننا وبين شامنا واحقن دماءنا ودماء أصحابك.

فقال له رضي الله عنه: إنك لم تأل عن النصيحة بجهدك، ولو علمت أن ذلك يسعنى فى دينى أجبتك ولكان أهون على من المؤونة، ولكن الله لم يرض لأهل القرآن أن يعمل بمعاصى الله فى أكناف الأرض وهم سكوت لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر.

واعلم يا حوشب أنى قد ضربت الأمر ظهره وبطنه وأنفه وعينه، حتى لقد منعنى من نوم الليل، فما وجدته يسعنى إلا قتالهم أو الكفر بما جاء به محمد ﷺ فكان معالجة القتال أهون من معالجة الإغلال، وكانت مؤونات الدنيا أهون على من النار.

فتأمل ما فى هذا القول من الأنوار والحجج الشاهدة ببطلان دعاوى هؤلاء القوم، فإنهم زعموا أنه مكث خمساً وعشرين سنة مع أبى بكر وعمر وعثمان وقد كفروا وارتدوا لا ينكر عليهم بل كان أكبر أعوانهم، وهو يقول هذا القول. وكان أصحابه يقولون لأهل الشام -مثل عمار بن ياسر- وقيس ابن

سعد، وشريح بن هانئ، وعدى بن حاتم، وصعصعة بن صوحان، والأشتر-: إن علياً إذا ظهر سار فيكم سيرة أبى بكر وعمر، وأن معاوية لا يفعل ذلك، إنما يريد العاجلة ويطلب الدنيا، وإن صاحبنا كان يتقدم عند أبى بكر وعمر ويرجعان إلى رأيه، وقولهم [1] إن صاحبنا من البدريين والمهاجرين وليس صاحبكم كذلك.

فانظر بأى شئ يمدحونه وبأى شئ يحتجون له لتعرف بطلان دعاوى هؤلاء القوم، فإنهم يقولون: الحجة فى إمامته نص النبى عليه، وظهور المعجزات عليه بعد النبى ﷺ، وهو رضى الله عنه لا يذكرها هو ولا يحتج بها ولا يعرفها. ولا أحد من ولده وأهل بيته وشيعته فى زمانه.

ولما رفع أهل الشام المصاحف وقالوا: بيننا وبينكم ما جاء به رسول الله ﷺ، ردونا إليه فقد رضينا به، وهذا كتاب الله؛ فما قال لهم هو ولا أصحابه: فرسول الله قد نص على وقال من كنت مولاه فعلى مولاه، وهذا نص أو تأويله النص أو معناه النص، أو آية كذا أو حديث كذا، فما احتج عليهم لا هو ولا شيعته الذين قتلوا بين يديه بشئ مما يذكره هؤلاء.

ولما قال له أصحابه: ضعفت وسكنت فى نفسك حتى حكمت الرجال فى أمرك، وأى حاجة كانت بك إلى هذا وقد بايعك المهاجرون والأنصار، وما أحوجنا وإياك إلى إمام مثل عمر يسوسنا ويسوسك، وقد كفرت بما صنعت، فما احتج عليهم لا هو ولا من كان يحتج عنه مثل ابن عباس وصعصعة بأنى معصوم ولا أخطئ ولا أعصى، وأن النبى ﷺ قد نص علىّ وقد رأيتم المعجزات أو قد بلغتكم، وما احتج عليهم إلا بما قد تقدم لك فى كل وقت وكل حال.

وكان يقول: والله لتخضبن هذه من هذه ويشير إلى لحيته وهامته، فيقول له أصحابه: لو علمنا من ذلك لأبدنا وأبرنا، فيقول: كيف تقتلونه ولم

---

(١) في الأصل: وقوله

يقتلني، فيقولون: يا أمير المؤمنين أوص واستخلف، فيقول: ما أوصى رسول الله ﷺ فأوصى ولا استخلف رسول الله ﷺ فاستخلف، فيراجعونه فيرجع عليهم بمثل ذلك ثم يقول: إن أدع فقد ترك من هو خير مني، وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، ولما ضربه ابن ملجم الملعون دخلوا عليه، فقالوا: استخلف، فقال: لا، انا دخلنا على رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله:استخلف فقال: لا، أخاف أن تفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هرون، ولكن إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يخر لكم.

قال أمير المؤمنين فعلم [اللَّهُ واللَّهِ][1] في قلوبنا خيراً فاختار لنا أبا بكر، ثم أقبل على صعصعة بن صوحان وكان في القوم فقال: ولكن يا صعصعة، إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يخر لكم، فتركوه ثم عاودوه فما فعل، وسألوه أن يشير عليهم بأحد فما فعل، فقالوا له: إن فقدناك يا أمير المؤمنين فلا نفقدك أن نبايع الحسن، فقال لا آمركم ولا أنهاكم، فعادوا القول فقال كذلك انتم أبصر، وكان آخر عهدهم به. وقبض صلوات الله عليه، فلم يقل[2] غير هذا.

فإن قالوا: فإنا لا نقبل هذه الأخبار، قلنا: لوقلتم أنه ما جرى بينه وبين العباس ما قلنا، ولا كان من الأنصار في السقيفة ما ذكرنا، ولا كان من أبي بكر والصحابة في استخلاف عمر ما قلنا، ولا دخل على في الشورى، ولا صلى خلف صهيب، ولا رجع إلى عبد الرحمن، ولا سأل القوم عمر أن يستخلف عليهم ولا قال أن استخلف فقد استخلف من هو خير مني وأن أترك فقد ترك من هو خير مني، بل ما وضع عمر شورى أصلاً، وهذا كله كذب، ما كان عندنا في ذلك إلا ما عندنا في إنكاركم ما كان من أمير المؤمنين، وكذا لو قلتم ما كاتب معاوية، ولا رفع معاوية المصاحف، ولا كان من أمير المؤمنين وبين أصحابه الذين صاروا خوارج ما ذكرنا.

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) في الأصل: يقول.

ولكنكم لو سلمتم هذا لبطل مذهبكم، ولو انصفتم لتركتموه وصرتم إلى مذاهب أمير المؤمنين وهى هذه التى قد ذكرناها، وما شأنكم إلا إنكار[1] ما قد كان وادعاء ما لم يكن، وما لو كان له أصل لكان العلم به قد قهر.

وفى أقل قليل مما كتبت دليل على بطلان دعاويهم، وإنما ذكرنا لك هذا فى هذا الموضع لأنك طلبته وذكرت حاجتك إليه.

وكثيراً تسأل الإمامية عما كان من عثمان فى توليه أقاربه وغير ذلك، وفى سير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، وما ذاك إلا لضعفهم وانقطاعهم لأن عثمان لو لم يول أقاربه ولم يصنع ما صنع لكان كافراً مشركاً عندهم بإدعائه الإمامة لنفسه ولأبى بكر وعمر، ولو كان طلحة والزبير وعائشة فى عسكر أمير المؤمنين وفى المحاربين معه ماكانوا إلا مشركين باعتقادهم إمامة أبى بكر وعمر وعثمان.

فكلام الإمامية فى هذا الكلام مسلم لو كلم اليهود فى وجوب النية فى الطهارة، أو كلم النصارى فى استحلالهم الخمر، وإنما يكلم فى هذا من قال: لا ذنب لعثمان إلا ما أتاه من الحمى وتولية الأقارب ولولا ذلك لكان مثل عمر.

ومن قال: لا ذنب لطلحة والزبير وعائشة إلات مسيرهم إلى البصرة ولولا ذلك لكانوا مثل أبى عبيدة وعبد الرحمن وابن مسعود.

فاعرف هذا ولا تكلمهم فيه البتة، وكلمهم فيما يدعونه من النص فهو الأصل. وأما طلحة والزبير وعائشة فإنهم إنما سلموا علينا لأنهم سلموا على أمير المؤمنين، وتولياهم وزكيناهم لأنه زكاهم ومدحهم وترحم عليهم بعد ما كان منهم بالبصرة وبعد موتهم، فلو عادياهم لكنا قد خالفناه وسرنا بغير سيرته وسلكنا غير سبيله، ونحن لا نرى خلافه، بل هو إمامنا وسيدنا والقدوة عندنا،، وهو الذى ظاهره كباطنه وسريرته كعلانيته.

وهذا كلام مع الخوارج فيقال لهم: على بن أبى طالب إمام هدى، وإنما

---

(١) في الأصل الانكار.

برئتم منه وادعيتم أنه كفر بالتحكيم وقبل ذلك كان مرضياً، وقد زكى هؤلاء قبل التحكيم، وقد وجب عليكم الاقتداء به، فإن قالوا: ومتى كان هذا منه؟ قلنا: قد كان يتصفح القتلى بعد انقضاء الحرب، فمر بطلحة وهو صريع فنزل إليه وأخذ رأسه فى حجره ومسح التراب عنه وقال: يرحمك الله يا أبا محمد، يعزّ علىّ أن أراك قتيلاً تحت نجوم السماء وفى أودية الأرض، ثم أنشد:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وأمر بجمع القتلى وصلى عليهم وأمر بدفنهم، ودخل عليه ولد طلحة فأدناه وقربه وقال له: يا ابن أخى، خذ كتابى إلى قرظة بن كعب الأنصارى ليرد عليكم أموالكم وما أخذ منها، فما أمرته بإدخال يده فيها، إنما أردت قبضها لئلا تمتد إليها أيدى السفهاء وليحفظها عليكم، اتبسط يا ابن أخى فى الحاجة تكون لكم فإنى أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[1].

ولما قيل له رضى الله عنه: قاتل الزبير بالباب يستأذن، انزعج هو وأولاده حزناً عليه وإنكاراً لقتله، وصار عندهم مأتم ومصيبة عظيمة، وقال: كيف قتله وليس من أقرانه؟ قالوا: اغتاله ومعه سيفه، فقال: خذوا السيف منه وبشروه بالنار، فأخذ السيف منه؛ فما زال أمير المؤمنين يقلب السيف ويقول كم كربة كشفها صاحب هذا السيف عن وجه رسول الله ﷺ، ولم يأذن له بالدخول عليه، ثم دخل عليه بعد ذلك مع الناس فقال: نحن أهل البلاء فلم نجفا؟ قال: من تكون؟ قال: قاتل الزبير، قال أمير المؤمنين: بفيك الحجر، بفيك الحجر، ليلج قاتل الزبير فى النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: لكل نبى حوارىّ، وحوارى الزبير، وسمعته يقول: الزبير فى الجنة وطلحة فى الجنة، فقال ابن جرموز: إنما قتلته ابتغى بقتله عند علىّ الزلفة فبشرنى بالنار، وندم على قتله، وصار ينكر أن يكون قتله.

---

(١) سورة الفجر آية ٤٧ .

وجهز عائشة بكل ما تحتاج إليه، وشيعها هو وأولاده وقال لأخيها ومن خرج معها: بلغوها، ووصّى بإكرامها، وكان يقول لها: يا أمّه، وأم المؤمنين سائرة، فمن أراد المسير معها ممن قدم بقدومها فليسر، وقال: أيها الناس: إنها أمكم وزوجه نبيكم فى الدنيا وزوجته فى الجنة، وردها إلى سدانة قبر رسول الله وإلى بيتها، وأعطاها ما كان يعطيها من قبله من الخلفاء.

ولا يحل لإمرأة زعم هؤلاء أنها كافرة، يردها أمير المؤمنين إلى قبر رسول الله ﷺ وتعطى[1] ما يعطى أمهات المؤمنين، سيما والمدينة فى ملكه وسلطانه، وفيها عماله، وليس له فى أمرها حاجة إلى المداراة والمداهنة بعد مقاتلتها كما كان بزعمهم يفعل مع من تقدم من الخلفاء.

وكم كان يركب إليها هو وأولاده وابن عباس وعبد الله بن جعفر، ويجلسون إليها ويعظمونها، وقد استغفرت واستغفر لها أمير المؤمنين، وقد سمع عمار بن ياسر رجلاً ينال منها والحرب قائمة فقال له: اسكت مقبوحاً منبوحاً، والله إنا لنقاتلها وإنا لنعلم أنها زوجة نبيكم ومعه فى الجنة، ولكن الله ابتلانا بها ليعلم إياه نطيع أم إياها؛ وشرح إكرامه لها وإكرام أولاده وهم بالبصرة يطول.

وكانت هى تلعن أصحابه الذين ارتدوا عنه ولعنوه وصاروا خوارج وتبرأ منهم، وتروى عن رسول الله ﷺ تصويبه وتضليلهم، وتقول: أمروا بالاستغفار لأصحاب محمد فسبوهم، وتسميهم كلاب النار، ولما بلغها موته استرجعت وقالت: ذهب والله من لم يسفهه الملك ولا أطغته الدنيا، لتصبع العرب ما شاءت فما بقى بعد على بن أبى طالب من يكفها ولا يردعها، ثم أنشدت:

فألقت عصاها واستقر[2] بها النوى كمـــا قر عيناً بالإياب المسافر

وكم قد طعنت على معاوية وواجهته بالتخطئة لما ورد المدينة ودخل عليها، حتى أخجلته وهو جبار قد غلب، وكم فعل ذلك به أخوها عبد الرحمن

(١) في الأصل ولا تعطي.

(٢) في الأصل: استقرت.

بما يطول شرحه. ولا يرد هذه الأخبار إلا معاند أو من قال أنه كان يلعنها كما يلعن معاوية ولم يردها إلى المدينة، ومن قال هذا فقد أتى فى البهت على ما لا فيه حيلة.

والإمامية تقول: قد فعل هذا ولكن على طريق حسن العشرة وعلى سبيل التكرم والتفضل، قيل لهم: هو ﷺ أجل قدراً وأشد ورعاً من أن يرد إمراة كافرة أو فاسقة إلى قبر رسول الله ﷺ ويمكنها منه، ويعطيها ما يعطى أمهات المؤمنين ويسميها أم المؤمنين، ويشهد لها بما قلنا، ويترحم على كافرين، ويرد الأموال ويشهد لهما بالجنة، هذا لا يحل فى دين الله ولا يفعله مثله رضي الله عنه بوجه من الوجوه، وإنما قوله بشر قاتل ابن صفية بالنار، وقوله: ليلج قاتل الزبير النار على طريق التزكية له كقول رسول الله ﷺ: «تقتل عمار الفئة الباغية»[1] على طريق التزكية لعمار.

فإن قالوا: لم لم يقتل قاتل الزبير؟ قلنا: لم يكن ذلك له وإنما هو لولد الزبير، فإن شاؤوا قتلوا وإن شاؤوا عفوا.

ومن عجيب الأمور أن عبد الله بن الزبير قام بعد معاوية ودعا إلى نفسه لإمرة المؤمنين، وغلب على الأرض بسبع سنين إلا كورة فلسطين، وانبث عماله فى الأمصار وعمرو[2] بن جرموز حى بالبصرة فما تعرضوا له، ولقد قرئت جريدة أهل البصرة على مصعب بن الزبير بالبصرة، فقرأ الكاتب عمرو بن جرموز، فقال قائل لمصعب أصلح الله الأمير وعمرو[3] بن جرموز وقد ساح فى الأرض وسار فى البلاد فقال مصعب: أو ظن ابن جرموز أنى أقيده بأبى عبد الله، ليظهر ابن جرموز آمناً وليأخذ عطاءنا مسلماً فظهر وأخذ وأمن وترفع ولد الزبير عن قتله وقد كان لهم ذلك، وهو إليهم، فكيف يتعجب عاقل من عفو أمير المؤمنين عنه وليس القود له.

---

(١) انظر شرح الجامع الصغير ٢ :١٤٧، وقد أورده أبو نعيم في الحلية عن أبي قتادة.

(٢) في الأصل: عمير.

(٣) في الأصل ابن عمير.

وكان عمرو بن جرموز بعد الذى سمعه من أمير المؤمنين شديد الندم على قتله، كثير الاستغفار، شديد الاشفاق، وقد بقى بعد زوال آخر آل الزبير ومصير الملك إلى عبد الملك، فكان الحجاج يقول له: أنت قتلت الزبير؟ لشدة عداوة الحجاج وبنى أمية لآل الزبير -فيقول ابن جرموز: ما قتلت أحداً، فيقول له الحجاج: وما عليك فى قتله، وقتله خير لك من جزاء وتدبير حسنات؛ يشجعه الحجاج لينصرف عن الغم والندم بما قاله أمير المؤمنين له فى دخول النار بقتل الزبير، لتعلم رحمك الله شهرة انكسار أمير المؤمنين على من اعترف بقتل الزبير. ولكن طال الأمر وقل الطالب المتأمل.

فإن قيل: فكيف سبيل تلك الدماء التى كانت بينهم يوم الجمل؟ قيل له: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه أعلم بذلك وافقه فى الدين وأشد فى الورع، ولم يكن ليقول فى هؤلاء وفى غيرهم ما لا يحل ولا يجوز فى الدين، فقد كفانا حكمه عن البحث والطلب، وإن كان العلماء قد ذكروا اتفاق رأى أمير المؤمنين وطلحة والزبير وعائشة على الصلح ووضع الحرب واستقبال النظر فى الأمر، وأن من كان فى العسكر من أعداء عثمان كرهوا ذلك وخافوا أن تتفرغ الجماعة لهم، وقالوا: لنشغلهم عنا بنفوسهم، فدبروا فى القاء الحرب بينهم ما هو مذكور فتم لهم ذلك، وما بك حاجة ها هنا إلى ذكره وأفعال أمير المؤمنين تغنيك، فإن أردته وجدته فى كتب العلماء[1].

(١) بياض في الأصل حتي نهاية الورقة ١٤٠ ثم الورقة ١٤١ فراغ أيضاً. وبهذا ينتهى الجزء الأول من الكتاب.